المحاضرة العاشرة : الفهم والتفسير والتأويل

يُشكل الفهم والتفسير والتأويل مراحل متكاملة في منهجية البحث الأدبي، خاصة في الدراسات الهرمنيوطيقية والنقدية، حيث ينتقل الباحث من الإدراك الأولي إلى التحليل العميق ثم الاستخلاص الإبداعي للمعاني. هذه المفاهيم تُميّز البحث الكيفي عن الكمي، معتمدة على دور القارئ كشريك في إنتاج المعنى داخل الدائرة التأويلية.

دور الفهم في البحث الأدبي :

الفهم (Verstehen) هو الخطوة الأولى والتلقائية، يركز على الإدراك الشامل للنص ككل من خلال السياق التاريخي والثقافي والجمالي، كما يُعرّفه ديلتاي كـ"فهم داخلي" للعقلية الخاصة بالمبدع. في المنهجية، يبدأ الباحث بقراءة تأملية للنص، ملاحظة التحيزات الشخصية(prejudices) ، وتحديد أفق النص ليندمج مع أفق الباحث، مما يُعدّ أساسًا للفرضيات الأولية. يتضمن وضع أسئلة مفتوحة مثل: ما السياق الاجتماعي للنص؟ وكيف يتفاعل مع تقاليد أدبية سابقة؟التفسير كأداة تحليلية التفسير (Erklären) مرحلة موضوعية تحليلية، تركز على تفكيك النص إلى عناصره (بنية، لسانيات، رموز)، مستلهمة المناهج البنيوية والشكلانية. يشمل:تحليل النحو والصور البلاغية، كما عند الجرجاني في نظم القرآن.دراسة السياقات (نصية، تاريخية، نفسية) لاستعادة نية المؤلف جزئيًا.استخدام أدوات مثل التلقي (reception theory) لقياس تفاعل القراء التاريخيين.في البحث، يُنتج هذا تقارير موضوعية تدعم الفرضيات، كجدول مقارن لعناصر النص مقابل نظائره.

التأويل كتكامل إبداعي : التأويل (Ta'wil أو Hermeneutics) الذروة، يجمع الفهم والتفسير في استيلاء إبداعي على المعنى، كما في قوس ريكور: شرح ⟶ فهم ⟶ استيلاء. يُنتج معاني جديدة تتجاوز النص الأصلي، معتمدًا "التعاضد النصي" عند إيكو (القارئ النموذجي يملأ البياضات).

مستوياته:

نقدي: تفسير الاستراتيجية النصية.

دلالي: إسقاط سياقات معاصرة (مثل تحليل ما بعد الاستعمار). تطبيقات عملية في البحثفي رسالة ماجستير جزائرية، يبدأ الباحث بالفهم (تلخيص السياق)، ينتقل للتفسير (تحليل بنية رواية فرنكوفونية)، ثم التأويل (ربطها بالهوية الاستعمارية). التحدي: تجنب النسبية عبر مبادئ مثل "المحبة " (charity principle)، وضمان التوثيق الأكاديمي. هذا المنهج يثري النقد العربي، كما في دراسات الجرجاني حيث يصبح النظم أداة تأويلية.

يُعد الفهم والتفسير والتأويل مفاهيم أساسية في الهرمنيوطيقا، علم التأويل الذي يتعامل مع استخراج المعاني من النصوص والأفعال البشرية. تعتمد هذه المفاهيم على تقليد فلسفي طويل يمتد من اليونان القدماء إلى الفلاسفة المعاصرين مثل شلايرماخر وغادامر وريكور.

حيث يُشير الفهم (Verstehen) إلى الإدراك الأولي والتلقائي للنص أو الفعل، كعملية أنطولوجية تسبق التحليل المنهجي، حيث يندمج القارئ مع النص في دائرة تأويلية. أما التفسير (Erklären) فيكون شرحًا موضوعيًا للأجزاء اللغوية والنحوية، يركز على الاستدلال والتحليل المنطقي دون الخوض في المعاني الكامنة. التأويل Hermeneutics) أو (Ta'wil هو الاستخلاص الإبداعي للمعنى الخفي أو الباطن، يجمع بين الفهم والتفسير ليصل إلى استيعاب جديد يتجاوز الظاهر. في السياق العربي والإسلامي، يفرق أبو هلال العسكري بين التفسير (الإخبار عن الظاهر) والتأويل (كشف المجاز أو غرض المتكلم).

الهرمنيوطيقا التقليدية: بدأت الهرمنيوطيقا كتأويل للنصوص المقدسة والأساطير اليونانية، مثل تفسير هوميروس بالاستعارة لكشف المعاني الأخلاقية الخفية. في العصور الوسطى، اعتمدت على "accessus ad auctores"، وهي أسئلة سبعة عن المؤلف والسياق والغرض.

دانهاور (1630) أسسها كمنهج عام لتمييز الصواب من الخطأ في أي نص. في النقد العربي القديم، كان التأويل تحليلًا لغويًا وإعادة صياغة للمفردات مع التعليق.

شلايرماخر: مؤسس الهرمنيوطيقا الحديثةنقل شلايرماخر (1768-1834) الهرمنيوطيقا من اللاهوت إلى النصوص العامة، معتبرًا الفهم فنًا لاستعادة نية المؤلف عبر الدائرة التأويلية: فهم الكل من الجزء والعكس. يرى أن كل فهم تفسير، والتأويل ينتقل من التخمين عن الكل إلى تحليل الأجزاء ثم تعديل الفهم. أكد على ضرورة فهم المفسر لقصد المؤلف لتحقيق فهم صحيح.

غادامر: اندماج الآفاق طور هانس جورج غادامر (1900–2002) الهرمنيوطيقا فلسفيًا في "الحقيقة والمنهج"، معتبرًا الفهم حوارًا جدليًا بين أفق القارئ وأفق النص، يؤدي إلى "اندماج الآفاق " (fusion of horizons).يتجاوز المنهج ليصبح الفهم تاريخيًا ولغويًا، مع ثلاث دوائر: جمالية، تاريخية، ولغوية. النص مستقِل عن مبدعه، والتأويل لا نهائي بسبب التحيزات.(prejudices) ريكور وباقي الفلاسفةبول ريكور يقدم "القوس الهرمنيوطيقي": تفسير (شرح موضوعي) ⟶ فهم (ربط بالعالم) ⟶ استيلاء (جعله شخصيًا). هايدغر جعلها أنطولوجية، مرتبطة بوجود الدازاين. في السياق الإسلامي، التفسير موضوعي لغوي، والتأويل ذاتي حدسي، بينما الهرمنيوطيقا بينية تاريخية–اجتماعية.

التطبيقات في النقد الأدبي :

في النقد المعاصر، التأويل عامل مشترك بين المدارس، يعتمد على قصد المؤلف/النص، اهتمامات المؤول، ولاوعي المبدع. يصبح النص مثيرًا والتأويل استجابة تقابلية، صورة أخرى وهمية متسقة. في العربي، هو منهج للفهم والتقويم الجمالي دون ارتباط إيديولوجي صارم. الدائرة التأويليةمبدأ أساسي: فهم الجزء يعتمد على الكل والعكس، كما عند أست (1808) وشلايرماخر. عند غادامر، هي بنية وجودية؛ عند هيدغر، أنطولوجية للدازاين. حل علم النفس الإدراكي: عملية تفاعلية فونولوجية–دلالية–نحوية.

هل الفهم (علوم إنسانية) يختلف عن التفسير (علوم طبيعية)؟

ديلتاي يدعو لاستقلالية الفهم. مبادئ مثل "المحبة (charity) "أو "الإنسانية (humanity) " افتراضية لتجنب السخافة. المنهج الافتراضي–استنتاجي: وضع فرضيات، اختبارها، تقييم مقارن.

الخاتمة:

يظل التأويل أداة حيوية للنقد الأدبي والفلسفي، خاصة في السياقات الجزائرية والفرنكوفونية، لاستكشاف التراث الاستعماري والاجتماعي عبر اندماج الآفاق. يتطلب ممارسة نقدية مستمرة

الهرمنيوطيقا توفر إطارًا غنيًا لتمييز الفهم كعملية وجودية تلقائية، والتفسير كتحليل موضوعي، والتأويل كتكامل إبداعي بينهما.

توسيع الدائرة التأويلية: الدائرة التأويلية عند شلايرماخر هي حركة متبادلة بين فهم الجزء (الكلمة أو الجملة) من الكل (النص بأكمله)، وفهم الكل من الأجزاء، تبدأ بتخمين أولي ثم تعديل عبر التحليل

اللغوي والنفسي. أما غادامر يطورها إلى ثلاث دوائر متداخلة: الجمالية (الانفعال الأولي بالنص)، التاريخية (الوعي بالتحيزات التاريخية)، واللغوية (الحوار اللغوي كوسط نهائي للتأويل). هيدغر يجعلها أنطولوجية، جذرها في الدازاين (الوجود البشري)، حيث كل فهم متجذر في الوجود قبل التنظير.

الدائرة ليست مفرغة، بل تكشف حقيقة النص عبر أحكام مسبقة إيجابية (التحيزات المنتجة). دلتاي يجعلها إبستمولوجية: نقد للعقل التاريخي، يميز الفهم الداخلي (نفسي) عن التفسير الخارجي.

القوس الهرمنيوطيقي عند ريكور يصف بول ريكور عملية التأويل بـ"قوس هرمنيوطيقي" مكون من ثلاث مراحل: التفسير (شرح بنيوي): تحليل الرموز والاستعارات كأفق مشترك للوقائع والقوانين، مستلهمًا اللسانيات.

الفهم (تفسير وجودي): ربط النص بالعالم الحي، يواجه التفسير البنيوي بالتجربة الشخصية.

الاستيلاء :(appropriation) جعل المعنى جزءًا من حياة القارئ، يتجاوز نية المؤلف.

يؤكد ريكور على ثلاثة تخمينات: الكل المنفرد، المعاني الرمزية، علاقة الأجزاء بالكل في الخطاب المتعدد، مما يؤدي إلى التصديق.

التأويل في النقد العربي القديم

شغل التأويل عبد القاهر الجرجاني وابن الأثير، معتبرينه حجر أساس الإبداع الشعري؛ يتطلب الغموض الفني مدعومًا بمؤشرات لفظية لكشف المقاصد الخفية. القارئ الحاذق يملأ الفراغات بجهد فكري، مما يمنح النص حياة جديدة ويولد اللذة الجمالية. مثال: في "دلائل الإعجاز"، الجرجاني يرى التأويل كشفًا للنظم الخفي عبر الاستعارة والمجاز. مقارنة بين المفكرين الرئيسيين تطبيقات حديثة ونقد في النقد الجزائري والفرنكوفوني، يُستخدم التأويل لتحليل التراث الاستعماري، كما في دراسات التلقي حيث يصبح النص مستقلاً. الدائرة قد تؤدي إلى نسبية مفرطة، لكن غادامر يدافع بـ"أسبقية السؤال" لضمان موضوعية نسبية. في الديني، يفرق بين تفسير (ظاهر) وتأويل (باطن)، مقاربًا بالهرمنيوطيقا.

في الختام، يمثل الفهم والتفسير والتأويل ركائز أساسية لمنهجية البحث الأدبي الهرمنيوطيقي، حيث يتجاوز الباحث الوصف السطحي ليصل إلى إنتاج معرفة نقدية عميقة تجمع بين الدقة التحليلية والإبداع التأويلي. هذه المراحل الدائرية، المستمدة من تراث الجرجاني في نظم القرآن والشعر إلى غادامر وريكور في اندماج الآفاق والقوس الهرمنيوطيقي، تمكن الدارس الجزائري من ربط التراث العربي بالنقد المعاصر، خاصة في تحليل النصوص الفرنكوفونية والاستعمارية.

يبدأ الفهم بإدراك شامل تلقائي، يليه التفسير التحليلي الموضوعي لتفكيك البنية، ثم يتوج التأويل باستيلاء إبداعي يولد معاني جديدة تتجاوز نية المؤلف، مما يضمن تماسك البحث ويجنبه النسبية عبر مبادئ مثل "المحبة" و"أسبقية السؤال". في السياق الأكاديمي الجزائري، يثري هذا المنهج دراسات الهوية والتلقي، محولاً القارئ إلى شريك فاعل في إحياء النصوص، كما في تطبيقات "دلائل الإعجاز" على الرواية الحديثة. للباحث، يُعدّ هذا الإطار أداة حيوية لرسائل الماجستير والدكتوراه، تجمع بين المنهج الكيفي والتاريخي-الاجتماعي، ليسهم في تطوير نقد أدبي عربي متجدد يوازن بين التراث والحداثة، محافظًا على الدقة العلمية والعمق الفلسفي.

قائمة المصادر والمراجع المعتمدة في تحرير الدرس:

ـ**جورج غادامر**: الحقيقة والمنهج(الخطوط الأساسية لتأويلية فلسفية)، تر: حسن ناظم، دار أويا 2007.

ـبول ريكور: من النص إلى الفعل بحوث في التأويل، تر: محمد برادة وحسان بورقية، دار عين، 2001.

ـبول ريكور: الزمان والسرد

علي حرب: التأويل والحقيقة (قراءات تأويلية في الثقافة العربية)، التنوير2009.